الاغترار بالظواهر

خطاب لشيخ الجسناء ألقي في حفلة جمعية شمس البر في غرف التراءة

غرارة هي الظواهر — يا اخوان — الظواهر غرارة . فكم من امور تحدث كل يوم يراها الناس بغير ما هي . كم من مشاهد تخدع الفكر واعمال تسبل دون الحق ستراً . كم من كلام يسر الاذن ويسوء القلب ومن طعام يلذ الفم ويلبك المعدة . ولكم ممن يصح فيه

« يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب »

اتذكرون — ايها الاخوان — اول حفلة ؟ اول خطاب سمعتموه من سلسلة هذه الخطب يوم تكلم الدكتور جلخ في تاثير العمر والاميال على الاخلاق ؟ اتذكرون ذاك الرجل الذي اتخذ جريدة يطالعها اثناء تكلم الخطيب كيف كان مقيماً بينكم كأنه وحده في مكتبه . كثيرون منكم هزأوا به وضحكوا عليه ولولا الادب لكادوا يشوشون الحفلة وبالطبع لم يخطر ببالهم ان المسكين اطرش ولكن من عرف حقيقة حاله صرفهم الى التسمع فاصغوا وقد صاروا عاذرين لا عاذلين

هكذا ترى الاشياء بمثل هذا يحكم عليها ولا يستقصي بالتحقيق الا النادرون . وبالبداهة ان الظاهر اول ما يرى والفكر تابع النظر ولكل امرء من شؤونه ما يشغل عن البحث في كل شيء ولكن هذا لا يكفي البشر ، لا يوافق العمران ولا يرقي بني الانسان والا فما الفرق بين البدوي في اليمن وبين المدني في باريز وكل منهما ياكل ويشرب وينام ، يولد ويحيى ويموت

ان الامور بمقاصدها والاعمال بالنيات ومصالح الناس تستوجب استطلاع الخفايا والا تضرروا من حيث راموا النفع . وقد عدّ الحكماء من دلائل الانحطاط الاكتفاء بالظواهر وعدّوا المكتفي بها جاهلاً غبياً ولم يفهم ان المتعلمين احياناً

بدلك يكتفون

قال بعضهم لو انصف الناس استراح القاضي ومن علم شيئاً التى مضاره والشك باب اليقين . والحق يقال اننا محاطون كيفما التفتنا بما يظهر غير ما يبطن ومع توالي ضحايا الاغترار لا نزال مغترين .. ولا اريد بنا نحن ابناء سوريا فقط بل جميع بني الناس أريد . وهل نحن من غير جبلة ؟

راجعوا تواريخ الامم طالعوا اخبارها اوسعوا الفكر امعنوا النظر ترونها كلها تغتر ولكن الفرق بعيد بين اغترار واغترار شتان بين الخوادع . ان ما يدهش الصيني لا يستلفت الفرنسي وما يستفز الهندي لا يحرك الانكليزي . وبمقدار اختلاف الامم يختلف غرورها وما يغرها . وبحسب استعدادها تغتر

برابرة افريقيا وهنود اميركا وهمج آسيا والمنحطون في اوربا يغرهم المزوق البراق والمبرقش اللماع فيؤثرون الثافه على الثمين والعرض على الجوهر يرضون بالزجاج بدل الالماس وبالنحاس عوض الذهب ويكتفون برزق اليوم عن الغد

وكلما ارتقت الشعوب جارتها المدارك الى ان بلغت هذه مكاناً قصياً واستوت على عرش العلم لا تقبل شيئاً بغير برهان . فتقلص ظل الغول والمارد وقل من تروعه الصاعقة ويرعبه الخسوف والكسوف حتى المذنب قل منه الخوف والسحر والتنجيم بقراءة الافكار والتنويم قد تخلصا من ربقة الشيطان

على ان ضعف الانسان يحول دون التأكد اكثر الاحيان لان شؤونه تشغله وامياله تعوقه ولا وقت يكفيه لاستطلاع كنه الاشياء سواء نظرها بعينه او سمعها باذنه . انما بالامكان التنبه الى ان الظواهر غير البواطن وان الاغترار بتلك يؤدي الى اهمال هذه . والاكتفاء به يضر . وتعمد التحقيق موصل الى الحق ولو طال عليه المجال ولكن اين من يتعمد ؟ اين من يبحث في اللب دون

القشر ؟ عبر تُنثر بها فنساها ومثائل ندرسها ولا نفهم معناها وما اشبهنا بالكاتب في الهواء والراسم على صفحات الماء

سمعنا خطاب (١) البلخ في تاثير العمر والامبال في الاخلاق والجميل (٢) في تاثير الصحة فيها وزينه (٣) في مكارمها وعطيه (٤) في الكنوز المطمورة وطباره (٥) في فوائد الائتلاف وتسمعون الآن الاغترار بالظواهر . وقد سمعتم وسمعت وطالعتم وطالعت ما لا يحصى من الخطب والمقالات والاحاديث والحوادث ودوس غيرنا اكثر منا واخبر اضعاف اضعاف ما اختبرنا ومع كل ذلك لا نزال جميعنا بالظواهر نغتر . فيا لضعف الانسان

نمر بالقصر فنحسد ساكنيه نعم سعداء فنهنئهم ننظر الى الخامسة بنيانه وفاخر اثاثه الى مركباتهم وخيلهم الى اثوابهم وحلاهم ونكتفي بها عنهم وقد يكون الشقاء معذبهم وهم الى الشفقة احوج منهم الى الحسد ونتأمل لابناء الكوخ اذ لم نرَ فيه ضوءاً وهم براحة بال يضحكون

نرى السيدة باجمل مظهر من الابهة والزينة فنتوهمها من ذوات الثراء وادّ بها لا تملك الا ثمن الفستان

نشاهد الشاب مضحكاً بالطيب متقلداً خيلاء كالطاووس مرتفعاً في المركبات وعلى صهوات الخيل ملازماً للقهاوي ومحلات القمار فنظنه من المتمولين واذا به مستخدماً يضع مئات من الغروش

يبصر الشاب فتاة في الطريق فتعجبه فيطلبها زوجة له واذا سئل على مَ اعتمد في انتخابها من بين البنات اجاب على ما رآه منها في الطريق من الاحتشام

(١) الدكتور سليم بك (٢) الدكتور امين افندي (٣) خليل افندي رئيس تحرير الثبات (٤) جرجي افندي منشيء المراقب (٥) الشيخ احمد صاحب الاتحاد الشهالي

تسمع القسيس والشيخ بعظان ضد الكفر ويرشدان الى الدين فنخال اتقوى عمت الرعية ويخالان واجباتهما قد تمت

يخطب الوالي بعد تلاوة فرمان الولاية مفصحاً عن سياسته معدداً المشاريع العازم عليها متهدد الاشقياء واعداً اجمل الوعود فيغتر السامعون والجرائد والسكان ويستبشرون بالخير ولكن ما اسرع خيبة الامل

ما دخل رئيس ديني معبداً في غير بلدته الا وحض على التآلف مبيناً فضل الوئام ونولا تعصب بعض الرؤساء واستبدادهم لعاش الناس اخواناً

أعلن الدستور دون سفك دماء واستلم الاتحاديون ازمة الدولة بلا قتال فقيل ان الامة كلها مستعدة للحرية على انها لا علم لها بشيء من هذا ولولا الجيش لما تحفزت الى الوثوب ولما خطت خطوة . وقد غالط عبد الحميد بقوله في افتتاح المبعوثان اننا لم نكن اهلاً للدستور اراده مدحت وسخرنا به اذ قال انه اعدنا الى الحكم النيابي بالعلم . وما كان اشد اعجابنا بانفسنا عندما نقض اليمين وانقض على الاحرار عندما هجمنا وهجما وارغمنا واز بدنا والهمنا اسلاك التلغراف بالتهديد والوعيد على انها لم تكن سوى ايام قلائل حتى ردت منا الهمم ولولا الجند لعدنا كما كنا

صدق الخليع باننا لم نكن اهلا للدستور ، ونحن لليوم ما صرنا فكيف بنا من اربعين سنة وبانه كان يعدنا الى الحكم النيابي بالعلم وقد رأينا تلاميذه يسيرون في السياسة سيره فآمنا وعدنا بانفسنا ساخرين . غر فتيان الترك ابتسام المستبد فكادوا يستسلمون اليه وسكب السلطان الماء بكأس زعيمهم واتحفه قصراً فامنوا جانبه واكتفوا بيمينه . وبعد ذاك التهليل والتكبير اعترانا جمود في العاطفة وتولى اليأس كثيرين منا ولوشك ان يردي الجميع

نعم لا بدّ في مثل ذا الانقلاب مما نرى لا بدّ من تلك الامور وتضعضع

الافكار والفوضى . لا بدّ في الهدم من تعالي الضار وفي البناء من التأني . والخلل متوقع مهما كانت احوال المحررين وانما حسب الامة قادة الراي فيها ان فاتها الاستعداد برمتها حسبها متولو امورها ان كان معظمها لا يدرك حرج موقفها

قلت مرّة عندما كنا نحتفي باعلان الدستور الى باشا كان عائداً من منفاه الى العاصمة — ا. جو ان يطول عمر الباشا الى ان يحقق آمالهو يرانا اهلاً لما حصلنا عليه)فاجابني —لا شك عندي باهلية البيروتيين وانا اعرفهم من قبل مستعدين الى هذه النعمة) وكثيراً ما حدّث الدكتور نمر وغيره عن حسن سمعة بيروت في الخارج من حيث الترقي العلمي . واذا كانت هذه حال مدينتنا فكيف حال بقية المدن

الا تذكرون الاحتجاجات الطويلة العريضة على ضم البوسنه والهرسك على استقلال بلغاريا ونشوز كريت على اغتصاب طرابلس الغرب ؟ انسيتم مقاطعة النمسا واليونان ونحن نقاطع اليوم ايطاليا انسيتم تهديد هذه الدول بالخطب والتلغرافات . كل ذلك واسفاه كان كلاماً بكلام واين من يفعل ؟ اين اعانات الاسطول والحرب اين اللجان والجمعيات اين النواب والاحزاب ذررنا الرماد في العيون واتهمناها بالرَمَد انشأنا من الحبة قبة ومن الجملة كتاباً ولا نزال كما كنا قوالين ثرثارين

اغترونا بظواهر الانقلاب فتوهمنا فناء المستبدين واذ ينا نشاهد الذئاب بهيئة حملان في الحفائر فغرتنا الوعود وكادت تذهب بنا وتوهمنا مجرّد اعلان الدستور كافياً لرقينا فاكتفينا بالاسم ؟ ولم نصبر على المصلحين بل اسرعنا بالحكم عليهم ولم نعذر